http://nidaulhind.blogspot.in

العلمانية والطائفية فى الهند

بقلم : السيد / فاسنت ساتى
رئيس المجلس الهندى للروابط الثقافية

قبل أن نتحدث عن التعريف الحديث للعلمانية كما وضعها وأوضحها جورج جاكوب هوليوك (GEORGE JACOB HOLYOKE) فى ١٨٥١م بمعنى الإنفرادية للديانة والدولة مع إنكار وجود الاله، سيكون أحرى أن نعى بتطور هذه الفكرة ليس فى العالم المسيحى فحسب وإنما فى كافة المناطق التى تسيطر عليها الديانات الأخرى

يقوم مفهوم العلمانية بكاملها أساسا على المعالجة المنطقية للحياة عكس تلك التى تعتمد على القبول التام والثابت لمفهوم "الأعلى" (يسمى الإله بوجه عام) ويتبعه القبول بقانون السلوك الذى يعتمد على الهداية أو الأوامر من الذات الأعلى كما نقلها الرسل والأنبياء أو تجسيداته فى شكل الإبن أو المطاهر الأخرى. وعندما يتم القبول بهذه البنية يزداد التصلب بمرور الزمن اذ أن اتباع هذه المفاهيم الخاصة والقواعد الالهية التى تدعى"الديانة" يفضلون الابقاء على الوضع الراهن بصفة عادية و يقاومون أى فكرة جديدة تهدد بالنيل من استقرار هذه البنية.

و جدير بالذكر أن كافة الديانات تقريبا ظهرت إلى حيز الوجود كثورة ضد النظام الراهن و بنداء للتصرف بالعقلانية مقابل مظاهر اللاعقلانية لطريقة الحياة الراكدة و مع ذلك فان المفاهيم الخاصة للديانة تعرضت للركود على أيدى أتباعها. و إنه من الأيسر أن نفهم أن مؤسسى كافة الديانات بينما قبلوا بوجود قوة أعلى كمبدع و خالق للكون بما فيه البشر أنهم أوضحوا المفاهيم السائدة فى زمنهم فى ما يتعلق بخلق الأرض و حركات الكواكب و الشمس و ما إليها و ذلك فى سياق

http://nidaulhind.blogspot.in

تفسير المظاهر الطبيعية ونموها العلمى و يصح نفس الشىء بخصوص القضايا الإنسانية الخاصة بعلاقات الأسرة و التجارة بين الأشخاص وطريقة السلوك و القواعد التى يجب أتباعها لمجتمع منسجم و سعيد.

و الأمر الأساسى الذى تقوم عليه جميع الديانات هو أن هذه الديانات تقدم حلا مقبولا للتساؤلات الإنسانية الخالدة ليس عن سلوكه فى هذه الحياة التى يعيشها فى الإطار الإنسانى فحسب و إنما عن قلقه عن الحياة الأخرى و رغبته فى الحصول على السرور و الفرح الدائمين. و رغم كل المنطق العقلانى لم يتمكن العلماء و الماديون من الإجابة المقنعة على التساؤلات عن الحياة قبل الميلاد و بعد الموت. و يوجد هذا الجواب لدى كافة الديانات مع تاكيد من الرسل و الكهنة بأن الانسان طالما يتبع قاعدة الحياة الصحيحة حسب هداية دينه فإن مستقبله فى عالم"الأعلى" (اللّه) مضمون بكافة المباهج و السرور الدائم و حتى أن ولادته الجديدة تعتمد على أعماله فى هذه الحياة. و من ثم يعتبر القبول بالاله الواحد و الصراط المستقيم الذى أهدى إليه ممثلوا الـذات الأعلى و ضمان الحياة الأخرى هى المبادىء المشتركة الثلاثة لكافة الديانات.

ولما يتم القبول بالمبادىء الأساسيـــة المذكورة أعلاه توضع مجموعة كاملة للطقوس والعادات و الاحتفالات و طرق العبادة للحياة اليومية و الإيمان الثابت والعقيدة المتواصلة فى الذات الأعلى و من يمثلونه. وهذه العوامل هى التى تربط المجتمع ربطا وثيقا، وعلى أساس هذه المفاهيم والقواعد و الأعراف تقوم المجتمات و الجاليات الخاصة بوضع هوياتها البارزة و تتمسك بها متعصبة ليست لمجرد الدفاع عن نفسها و عشيرتها ونسبها و إنما لتوسيع نطاق نفوذ إعتقادها وثقتها من أجل الزيادة فى قوتها الدنيوية. ومن ثم شهد التاريخ النزاعات الدينية و الحروب و الإنتصارات كميزة شائعة للعهد القروسطى.

ولّما تعرضت الأفكار الدينية المبنية على المعرفة و النظريات الخاصة بعهدها للتحدى الناجم عن نمو المعرفة العلمية والتقنية عن العالم بسبب المخترعات و الإكتشافات مثلما يتعلـق بالكـون و الطب و علم التشريح الإنسانى والوعـى الأفضـل فى مجـالات علم الحساب و الكيمياء و الفيزيا فبدأت ارهاصات معظم الأفكار الدينية تخسر من قوتها و نفوذها. ونعرف أمثال غليليو و كوبرنكس عن الظاهرة الفلكية،

http://nidaulhind.blogspot.in

وفى الفترة التالية عن إكتشافات كارتيز و نيوتون إلى نظريات النسبية لأئينستائن.

وكما ذكر آنفا فإن أتباع الديانات وخاصة الكهنة فى كافة الديانات تقريبا أكدوا على الديمومة و استحالة الخطأ فيما يتعلق بالحقائق المذكورة فى تصريحات مؤسسى تلك الديانات وعليه فان أى تحدى لتلك الحقائق كان يعتبر تجديفا و بالتالى مستوجبا للعقوبة و حتى عقوبة الموت فى بعض الأحيان. ونظرا لذلك فإن الدولة أو السلطات المسئولة التى تعالج الحياة الدنيوية اضطرت لمعارضة موقف صلب عضال للسلطات الدينية مثل الكنيسة. وكأول نتيجة لهذا الكفاح بدأت السلطات الرسمية تنفصل عن الكنيسة التى كانت أولا تحت سيطرة الملك وثانيا تحت سيطرة البرلمان و تم التوصل إلى تفاهم بأن الدولة سوف لاتتدخل فى الأمور الروحانية وشئون الكنيسة وتقبل بسلطة الكنيسة فى تلك الأمور. ومقابل ذلك سوف لاتتدخل الكنيسة فى القضايا التى تتعلق بالحياة المادية و كذلك المجالات المختلفة للعلوم و التكنولوجيا و الصناعة و التجارة و الطب حيث تتقدم المعرفة بخطى حثيثة وتتحدى النظريات المقبولة من ذى قبل.

ومن ثم اعتمدت الدولة فى أعمالها فى عدة مجالات طريقة علمية تسمى بصفة عامة "العلمانية" وانها فى معظم العالم المسيحى قبلت بسلطة الكنيسة فى الأمور المتعلقة بالمعتقدات الشخصية. ومعظم هذه الدول تقبل المسيحية كديانة رسمية لو أنها تتمسك بالمبادىء العلمانية فى أعمالها ولاتدعى بذلك فقط.

إن كلمة "العلمانية" التى يعود أصلها إلى الكلمة اللاتينية (SECULUM) تعنى الشىء الذى يتعلق بالأمور الدنيوية التى تتميز عن الأمور الروحانية و الكنيسية. والآن قد اكتسبت مفهوما تم توضيحه فى عدة قواميس ألا وهو نظرة للحياة مبينة على المبدأ القائل بأن الديانة و الاعتبارات الدينية يجب تجاهلها أر التنحى عنها عن قصد أو نظام للأخلاقية الاجتماعية التى تعتمد على المبدأ القائل بأن المعايير الخلقية والسلوك الأخلاقى يجب تحديدها بوجه خاص بدون مراجعة الديانة. والوضع الآن بخصوص العالم المسيحى عبارة عن تفاهم مرضى أقل و أكثر بين القضايا المتعلقة بالإيمان و كذلك العقيدة

http://nidaulhind.blogspot.in

فى الحياة الأخرى و الميزات الدولة التى تتبع المبادىء العلمانية وبين الكنيسة التى ترضى بمعالجة البارزة التى يتعمد عليها هذا الإستقرار هى: قيم الحياة الأخلاقية الحسنة التى هى من بين تعاليم الديانة و حسن الجوار و الصداقة و الأخاء و المحبة و الأمانة و الصدق و السلوك السلمى. وهذه هى المبادىء الأساسية التى يشاطرها معظم الديانات و كذلك تم قبولها كالمبادىء الأساسية لسيطرة القانون المطلوبة للادارة و الحكم من قبل الدولة. ولذا قد أصبح العالم المسيحى نموذجاً للعلاقة المنسجمة بين الدولة و الكنيسة. والآن دعنا نأخذ حالة الديانة الرئيسية الأخرى و هى الإسلام ، وذلك لأنها أيضا ديانة سامية و كما ذكر مرارا فى القرآن الكريم ليس الإسلام إلاّ تاكيدا وإيضاحا للطرق التى أرشد إليها الأنبياء والرسل الأسبقون للعالم السامى مثل سيدنا إبراهيم وموسى ويعقوب وعيسى عليهم السلام و الآخرون ! وأنه يبدأ بنفس القصة لبداية الانسانية بآدم وحواء وقانون الحياة المتمثل فى توجيهات و تعاليم هؤلاء الرسل. وجدير بالذكر أن مؤسس الاسلام نفسه ذكر مرارا بأنه ليس إلاّ رسولا يبلغ رسالات ربه عن الحقيقة الخالدة التى أوحيت إليه بواسطة الملك جبرائيل لكى يعرف الناس بالحقيقة الخالدة عن الذات الأعلى وعن الحياة الدنيوية وحياة الآخرة.

وجاء فى القرآن الكريم الذى أنزل بشكل الوحى خلال الفترة الممتدة على حوالى ٢٣ سنة أن هذه الحقيقة التى توحى إلى الرسول سبق أن أبلغها الخالق الأعلى إلى المجتمعات المختلفة بواسطة الرسل الذين اختارهم من بينهم ليخبرونهم عن سواء السبيل فى لغاتهم المختصة. ويشير القرآن إلى معظم الرسل الساميين الأوائل و يذكر أن هذه هى نماذج قليلة من الكثير من الرسل الذين بعثوا إلى المجتمعات الإنسانية وقد ذكر أنه لما انحرف الإنسان بجهله عن الصراط المستقيم ، أرسل الله رسولا ليهديه إلى الصراط المستقيم منذرا بأنه إذا لم يتبع هذه الخطوط الارشادية سيتعرض لعقوبة صارمة ، ليس فى هذه الحياة فحسب وإنما فى الحياة الأخرى أيضا. وقد دعى الناس مرارا إلى أن يفكروا منطقيا فى المعتقدات والعادات الغير المنطقية و المضحكة التى قد وقعوا فى فخها وأن يقبلوا بصحة الخطوط الارشادية الجديدة التى أوضحها أخر الرسل . و فى واقع الأمر أن العرب الذين كانوا ينتمون

http://nidaulhind.blogspot.in

إلى القبائل الصغيرة ويعبدون آلهتهم الخاصة و يؤمنون بعقائدهم الخاصة كانوا يطلبون أدلة قاطعة بشكل المعجزات و خوارق العادة من الرسول. و لكنه نادرا ما جاء بأى خارق للعادة طيلة حياته. ونبههم قائلاً : هل يمكن أن يكون هناك خارق للعادة أكبر من الشمس والقمر و الأرض و كذلك الانسان نفسه و سخر منهم أيضا متسائلا. ماذا حدث للمعجزات التى جاء بها الأنبياء الأوائل ؟ هل اعتقدوا بها؟ وفى الواقع ألم يقتلوا أحدا من الرسل؟ (مشيراً إلى المسيح) ومن ثم كان الأعتماد بدرجة أكبر على منطقية الحجج المؤيدة للخطوط التوجيهية والمبادىء المختصة بحياة مرضية كما وردت فى آيات القرآن الكريم. والمبادىء الأساسية للإسلام تعتمد على أركان مثل التوحيد والنبوة و الآخرة ، و أن اللّه (الذات الأعلى) لايتجسد بأى شكل ولكن له صفات بارزة كالربوبية و الرحمة و الهداية والعدالة فى الدنيا والآخرة.

وعلى الرغم من هذه المبادىء الأساسية والواضحة و قانون الحياة الذى يعتمد بدرجة رئيسية على المساوات والعقلانية إلاّ أن أتباع الاسلام و علماء الدين بصفة عامة إتخذوا مواقف متصلبة فى تفسير التعاليم القرآنية؛ و رفض العالم الذى خضع لقانون الاسلام أن يقبل بأى فكرة جديدة مبنية على التحقيق العلمى وقاوموا بصورة دوغماتية ومتعصبة حتى الاستفسارات الأساسية للغاية.

وهذا الموقف كما ذكر أعلاه يتعارض مع روح القرآن وتعاليمه الحكيمة بكاملها و لدينا أمثلة كافية للتعصب الذى أظهره البعض من أتباع الاسلام.

أمّا فيما يتعلق بالعالم الاسلامى، فجاء التحدى الحقيقى الوحيد من العصرية فى عهد كمال أتاترك فى تركيا مما أدى إلى درجة كبيرة من التحول. ونفس الشيء حدث فى دول الشمال الأفريقى مثل مصر إلى حدما. ونشاهد كذلك نفوذ العصرية و الأفكار العصرية فى دولة اسلامية مثل اندونيسيا ولكن العالم الاسلامى لا يقبل "الاسلام" دينا لدولة فحسب و إنما يدعى بالتمسك بالمبادى ء التى وضعت قبل ١٤٠٠ سنة بغاية من التصلب والتعصب حتى اليوم ويرفض أن يقبل أى مبدأ علمانى حتى لإدارة الدولة. وفى الحقيقة ، كما حدث فى العالم المسيحى الذى هو أيضا من الديانات السامية يمكن للاسلام أن يتقبل أى مبدأ

http://nidaulhind.blogspot.in

علمانى بسهولة أكثر بسبب المعالجة المنطقية الأساسية فى القرآن بالذات وأن يحدث تعاملا منسجما بين السلطة الدينية و الدولة العلمانية. غير أنه لأسباب شتى، ومن أهمها العوزللتعليم لدى الجمهور و نزعة استغلال السذاجة الدينية لدى السلطة السياسية ، نجد أن العالم الاسلامى بالجملة مازال يفضل أن يدخل قوقعة الثيوقراطية حتى فى الأمور المتعلقة بإدارة شئون الدولة و يرفض أن يقبل العلمانية إما كشعب أو كدولة.

ثم نأتى إلى الجزء الباقى للعالم الذى تسيطر عليه الديانات الغير السامية مثل الديانات التى تتبع مبادىء طريقة الحياة المألوفة منذ عهد كتب الفيدا و هى التى تشكل الأساس لمعظم تلك المبادىء.

وكانت المبادىء الفيدية التى وضعت فى الأزمنة السحيقة مبنية على المفاهيم الواسعة جداً ليس عن مجرد الحياة فى هذا العالم وإنما عن الحياة المتعلقة بالطبيعة بأسرها والكون و كذلك التأمل عن الحياة الأخرى. و الفكرة المركزية لفلسفة الفيدا هى حوار منطقى متواصل مبنى على التساؤلات و الإستفسارات و ليس القبول بأى تصريح كالحقيقة النهائية. والواقع أنه لايوجد هناك أى كاتب خاص أو نبى قد تم القبول بأقواله أو بياناته كتصريحات نهائية وثابتة أو قد تم ادراجها فى كتاب خاص بهذا الشكل. ويعتقد الناس أحيانا أن "مانوسمرتى" هى وثيقة كهذه ولكن كما ذكر فى مانوسمرتى بالذات يوجد هناك عشرات من المانو أى مانح القانون ويعنى هذا أن مانو ليس رجلا خاصا ولكنه فى الحقيقة وزير للقانون. وقد ذكر مرارا أن طالب الحقيقة يجب أن يسأل بذهن تحقيقى. إذن فقط يمكن له أن يصل إلى معرفة صادقة على أيدى المعلمين المتنورين. وقد ذكر هذا بتعبير جميل فى مقطوعة معروفة من "غيتا" كما يلى :

"اعرف ذلك بالسجود
وبالتحقيق و بالخدمة ، والعاقل
الذى يدرك الحقيقة ، ويرشدك
إلى تلك المعرفة "

ولذا فإن مفهوم الديانة الذى ينبع من فكرة الفيدا لا يخلو فقط من تصلب بل يوجد فيه استعداد ليس للتوفيق بين المدارس الفكرية

http://nidaulhind.blogspot.in

المختلفة و إنما لقبولها أثناء البحث عن الحقيقة وطريقة مناسبة للحياة.

إن كلمة "دهرما" التى يخلط المرء بينها و بين الديانة ويظن أحيانا بكونهما مرادفتين تعنى فى الواقع طريقة للحياة كاملة تحافظ على المجتمع.

كما أن كلمة "دهرما" لاتدل فقط على مجرد التحقيق عن " الأعلى" وإنما عن كافة جوانب الحياة فى هذا العالم ومابعده و تدل كذلك على واجبات أعضاء المجتمع الانسانى ، ليس من البعض تجاه البعض وخاصة أعضاء الأسرة ولكن الواجبات فى مجال الحياة العامة مثل واجبات الحاكم تجاه رعيته. وهناك طريقة السلوك الملموسة التى وضعت للحكام فى شئـون الدولة لاسيما تلك التى لها صلـة بالرعية أو الشعب. وقد ذكر بتعبير رائع كالآتى:

"فى سعادة الرعية فقط
يمكن أن ينال الملك سعادته
وفى رفاهية الرعية فقط
يمكن أن يجد رفاهيته
لايمكن للملك أن يفكر فى رفاهيته الخاصة فقط
بل عندما تكون الرعية مسرورة
إذن فقط يمكن أن يجد رفاهيته الخاصة.

ذكر مرارا وتكرارا فى سائر الأدب الفيدى بأن زعماء المجتمع يجب أن يضعوا نموذجا للسلوك الصحيح لأن الناس يحاكيهم بصورة عادية. ونجد ذلك فى "غيتا" بعبارة جميلة كالآتى:

مهما يعمل شخص فائق يتبعه الآخرون. ومهما يظهر بعمله يتبعه الناس ". وهذا نفس مايقوله المثل "الناس على دين ملوكهم"

والكلمة "دهرما" تستخدم أحيانا لوصف الميزات الطبيعية للأمور الحيوية وغير الحيوية ، "كفونا دهارما" ولذا فإن كلمة "دهرما" فى تطبيقه الأوسع قريبة من كلمة "العلمانية" فى محتوياتها و شكلها معا. ويحدث الارتباك حينما تستخدم كلمة "دهرما" بأسلوب طليق فى مفهوم الديانة ، وكما ذكر آنفا فإن الأخيرة تقتصر على معنى العقيدة بالأعلى و كذلك بالحياة فى هذ العالم ومابعده. و فى السياق الهندى لذلك سيكون من الخطأ لونعتبر كلمة "العلمانية" مترادفة للامبالاة

http://nidaulhind.blogspot.in

بالديانة أو الرفض للديانة.

وأقصى مايمكن أنه لايمكن معادلة كلمة "الديانة" مع "سامبردايا" أو "بانت" و يمكن لأحد أن يقول بسهولة أن الحكومة يجب أن لا تنحاز إلى عقيدة خاصة. وفى هذا السياق لا يصح مصطلح "سرو دهرما بهاف" (الاحترام المساوى لكافة الديانات) فكما ذكر أن كلمة "دهرما" تشمل و تستوعب مجموعية الحياة كحد كبير مثل كلمة "العلمانية". و كما لايمكننا القول بأن العلمانية تدل على مفهوم الاحترام المساوى لكافة أشكال العلمانية إذ أنه سيعنى تناقضا فى المصطلح ، لا نستطيع القول بأنه يوجد هناك مصطلح كالاحترام المساوى لكافة الديانات لأن الكلمة "دهارما" تستلزم بنفسها "ساماتفا" (التعاون) وسامابهاف (الانسجام).

وفى هذا السياق عندما يعادل بعض الناس كلمة "دهارما" مع "الديانة" واعتمادا على النظرية المقبولة للعلمانية وهى الإنكار للديانة فى شئون الدولة يبدأ فى الدعاية بأن الدولة أو مؤسساتها السياسية لا صلة لها بالديانة أو يجب عليها الابتعاد عنها فهو يدعو لإنكار الروح الكاملة وطريقة الحياة التى مازال يعتمد عليها التراث الثقافى والإنسجام المتواصل للهند. عبر ألوف السنوات أن "بها غفات غيتا" تعبتر من القصائد التى تنعكس فيها روح الأفكار الفيدية والمعرفة و أن التفسير المذكور للعلمانية يتعرض بوجه مباشر مع ما ورد فى هذه القصيدة المعروفة حيث تقول ياسليل البهارتا (الهند) حيثما يكون سقوط "دهارما" ونهوض "اللادهارما" فإنى أظهر فى شكل من الأشكال

والواقع أن "غينا" بالذات يذكر أن هذه المعرفة عن الحقيقة اللعليا لوحدة "البراهمان" والحياة والطريق التى تتعلق بالسلوك الصحيح والحياة الأخرى المعتمدة على السلوك أو "كارما" فى هذه الحياة قد اعطيت للكهنة الآخرين مثل "فيفاسوان" ومانوو "اكشاكو" ثم ذكرت هذه الحقيقة نفسها مرة أخرى لنفع الانسانية على لسان "ارجونا". ويمكن لأحد أن يلاحظ المماثلة بين ما ورد فى غيتا وفى القرآن الكريم بهذا الصدد لو أن بيان غيتا جاء مبكرا بكثير من القرآن الكريم. ولذا فإن العلمانية فى الهند يجب أن تعنى التمسك بمبادى الديانة الكونية ومبادئهاالأساسية المتوارثة منذ ألوف السنوات والتى تعتمد عليها

http://nidaulhind.blogspot.in

الحياة الكاملة للهنود اعتمادا كاملاً.

فى الحقيقة أن فكرة دهارما بمعنا ها الأوسع تقبل قبولا أكثر من العلمانية بوجود وممارسة جميع المدارس الفكرية والعقائدية بصرف النظر عن أصلها ومنشأها و أنها لا تتسامح مع تلك المدارس فحسب ، وإنما تقبلها كجزء لايتجزا لمفهوم أوسع للديانة. وفى هذا تكمن القوة الحقيقية للعلمانية الدينية فى الهند. وقد ورد هذ المفهوم بأشكال مختلفة فى البيانات المعروفة كالآتى:

هو الوحيد ـ يدعوه العاقل بأسماء عديدة.

و أنا أقبل الناس بالشكل الذى يعبد وننى فيه.

و كما ينزل الماء من السماء ويجرى فى الأنهار العديدة

و يتجمع فى البحر نهائيا فإن العقائد والعبادات على اختلاف أشكالها تصل بالمرء إلى نفس الذات الأعلى الخالدة.

وهنا تأتى مسألة الطائفية فى الهند. فى البداية أخذت الطائفية شكلا من النزاع بين المجتمعين الرئيسين أولهما يتكون من أتباع الاسلام وثانيهما يتكون من أتباع طريقة الحياة الفيدية التى يسمى "بهندو دهرما" ولكنه مركب لمعتقدات عديدة. وهنا يجب ازالة الارتباك الذى نتج عن كلمة "هندو". تشتق هذه الكلمة من النطق الفارسى لكملة "سندهو" ونفس هذه الكلمة تنطق فى اللغة اللاتينية كـ"اندوس". وأنها فى اللغة الفارسية من عهد "افيستا" أى اللغة الزرادشتية كـ"هندو" فحرف "س" تبدل بـ "ه" و هكذا أصبحت الأرض المحيطة بنهر هندوس (INDIA) ـ وأصبح الشعب الذى يسكنها(INDIAN) لدى الأغارقة وكافة العالم الغربى ـ وكذلك أصبحت الأرض المحيطة بنهر هندو (سندهو) "هندوستان" (ستان. معناه الأرض) والشعب الذى يسكن هنا سمى "بهندوس". وهناك مقولة فى "افيستا" يعود أصلها إلى عهد ماقبل الاغارقة بأن شخصا من البراهمنة اسمه "فياسا" جاء من هندوستان" ولم يكن هناك رجل ذكى مثله. والكلمة "هندو" لايوجد ذكره فى أى كتاب يتعلق بالتراث الهندى أمثال "الفيدا"و"بهاغود غيتا" و "ابانيشد" وملحمة "راماين" و "مهابهارت" أو فى أى كتاب مقدس قديم آخر. وكما أنه من تسمية خاطئة أن يقال أن ديانة الشعب الهندى هى (INDIAN) من الخطأ أن يقال أن ديانة شعب هندوستان هى (HINDU) . وعلى وجه

http://nidaulhind.blogspot.in

التحديد أنٰ هندوستان الحقيقية هى الأرض التى تقع حول نهر سندهو (اندوس) أى حيث تقع باكستان الآن و هكذا يجب أن يسمى الشعب الذى يسكنها "بهندوس". و تدعوا الضرورة لإزالة هذا الإرتباك لأن هذه الكلمة تستخدم لوصف الديانة والجنسية الهندية فى آن واحد.

لايوجد فى العالم بلد يسمـــى الدولة المسيحيـــة أو البوذيـــة أو الإسلامية لو أن الدولة تقبل ديانة خاصة كديانة رسمية لها. وهكذا لايمكننا أن ندعو الهند "كدولة هندوسية" لو أن أغلبية السكان تتبع تلك العقيدة الخاصة و يمكن إزالة هذا الإرتباك إذا قبلنا المفهوم الأوسع لكلمة "ساناتانا دهارما" لوصف ديانة أغلبية الشعب الهندى. ولو يستمر الناس فى إصرار هم على إستخدام كلمة "هندو" كمصطلح لوصف الديانة فيجب أن يتركوا استخدامها لوصف "الدولة الهندية". ووصفها الدستور بالذات بأنها الهند وهى "بهارت". ونال الجانب السلبى للهندوسية تاكيدا متزايدا خلال فترة السيطرة الإستعمارية للأمبراطورية البريطانية لأنها وجدت فى ذلك طريقة ناجحة للإيقاع بين المجتمعين يمكن أن يقفا و يكافحا معا لإسقاط سلطة الاستعمار البريطانى كما حدث فى عام ١٨٥٧م.

وهناك عامل مهم جدا يستحق الدراسة باعتباره من الأسباب المسئولة عن تقسيم هذين المجتمعين الرئيسيين الا وهو عامل الديمقراطية عندما كانت السلطة البريطانية ترسخ جذورها فى الهند ، كانت الفكرة السياسية الحديثة للديمقراطية المتنامية بفعل الثورة الصناعية فى العالم الغربى تزداد قبولا ليس لدى النخبة المختارة فقط، بل لدى عامة الشعب فى الهند. وفى المراحل المبكرة كان هناك شعور بالاجماع على ضرورة التخلص من القوة الاستعمارية تحت قيادة هذين المجتمعين و كان كلاهما يعملان معا تحت رأية حزب المؤتمر. وعندما أدرك الناس بأن فى الهند المستقلة سيكون الحكم حكم الشعب عن طريق الممثلين المنتخبين ديمقراطيا على أساس حق التصويت وصوت واحدلكل مواطن. شعرت قيادة المجموعة المسلمة أنه فى ظل هذا النظام للحكم لا يمكن الحصول على نصيب مناسب فى الحكومة لأن قوتهم التصويتية ستكون أقل من ناحية العدد، وتذكرت بأنه قبل قدوم البريطانيين كانت تحكم المناطق الكبيرة للهند بواسطة السلاطين

http://nidaulhind.blogspot.in

والملوك و الأمراء بصرف النظر عن تعداد السكان المسلمين وأنها تجد نفسها فجاءة فى حالة غير مواتية جراء الهيكل الديمقراطى الذى يحظى بالقبول العالمى بين الحكام البريطانيين و الشعب الهندي معا. وأن هذا الخوف هو السبب الرئيسى فى أن نظرية القوميتين كما نشرها وشجعها الحكام المستعمرون حظيت بالتأييد لدى المجموعة المسلمة وتضخمت هذه الفكرة فيما بعد لحد أنها أدت إلى تقسيم البلاد فى نهاية الأمر.

وفى رأيى فإن العامل الأكبر للإنفصال الدائم بين هذين المجتمعين يتمثل فى أن زعماء "ساناتنا دهرما" التى تم إيضاحها و إعادة إرسائها من قبل "أدى شنكرا تشاريا" لم يتمكنوا من استيعاب الاسلام أو المسيحية داخل بحر "ساناتانا". ومن الناحية التاريخية ، وفى عصر مابعد الفيدا أصبح المجتمع الهندى راكدا و مرنا لأسباب شتى. ومن أحدى الأسباب الرئيسية هى الاقتصاد ، فقد وجد المجتمع مع عدد سكانها المحدود جوا ملائما وصالحا للعيش فى منطقة "غنغا" و كذلك حول الأنهار العديدة التى تجرى فى كافة أنحاء البلاد و توفر أرض مخصبة. وأصبح المجتمع معتمدا على الزراعة و يعيش و ينتشر فى الأرياف المعتمدة على الذات نمو متواصل وعيشة راضية ، الأمر الذى جعله راضيا عن نفسه وغير قادر على مقاومة غزو خارجى.

وهنا يجب أن ندرس سير التطور التاريخى للنظام الذى يعتمد على أربع فئات فالمجتمع الذى لم يعد متنقلاً و بدويا كان يلزم إعطاءه هيكلا منظما فشعر ما نحوا القانون البارزون بأنه من الممكن أن يقسم المجتمع على نطاق واسع إلى أربع فئات:

أولا: الفئة التى تعالج شئون المعرفة والأدب والبحث والعلم والتكنولوجيا تسمى بـ"براهمان" أو "طالبى الحقيقة".

ثانيا: الفئة التى تعالج الإدارة والدفاع والنظام والقانون والحكم تسمى بـ"تشتريا" (أى المحافظ) .

ثالثا: الفئة التى تعالج النشاطات الإنتاجية بمافيها الزراعة وصناعة الألبان والتجارة و ماإليها تمسى "بـ فيسيا".

رابعا: الفئة التى لم يمكن لها القيام بالمهن المذكورة أعلاه بل قامت بالأعمال اليدوية تسمى بـ"شودرا".

http://nidaulhind.blogspot.in

وإنه جدير بالذكر أن تقسيم هذه الفئات أساسيا ما كان يعتمد على الولادة و كان للناس أن يقوموا بوضع أنفسهم فى الطبقات المختلفة حسب كفاءاتهم و ميزاتهم الخاصة. و هكذا فإن أى مجتمع يمكن أن يقسم إلى هذه الفئات الأربع حتى فى عصرنا الحديث فى العالم كله طالما لاتوجد هناك قيود مرتبطة بالولادة. و قد تم التاكيد على كون هذا التقسيم غير قائم على الولادة و كونه مرتبطا بالميزات والكفاءات فى "مانوسمرتى" والوثائق المعروفة الأخرى ومنها "غيتا".

وبعد وصف الواجبات العديدة للطبقات المختلفة قد ذكر بصورة واضحة فى الفقرة ١٠ و البند ٦٥ من "مانوسمرتى" مايلى:

(بموجب السلوك الأعلى أو الأدنى يمكن "لشودرأن يصبح براهمان أو براهمان يصبح شودرا فهذا يعتمد على الميزة و الجدارة فقط). وهذ المفهوم الأساسى قد ذكر بمزيد من الإيضاح فى غيتا.

ولم يذكر فى أى مكان بأن هذا التقسيم مبنى على الولادة أو النسل. ولايوجد ذكر اللامساسية فى "مانوسمرتى" كما أكد الدكتور امبيدكر بنفسه إذ أنه قياسا على تشريح الأعضاء الانسانية جاء البراهمنة من الرأس و "تشتريا" من الذراع و "فيسيا" من الجسم و "شودرا" من الرجل. و هكذا فإن الرجل فيما يبدو لا يمكن أن يكون نجسا فهو فى الواقع جزء هام من الجسم وبدونه لا يمكن أن يتحرك. و جاءت فكرة اللامساسية لتطبق على الأشخاص الذين كانوا خارج إطار هذا المجتمع والذين جرى الإنتصار عليهم و إجبارهم على العيش خارج حدود المجتمع الذى يعتمد على الطبقات الأربع. وهؤلاء الأشخاص الذين أجبروا على البقاء خارج المجتمع كانوا مضطرين لكسب المعاش عن طريق إختيار مهن مثل نقل الجثث والتصرف فيها وتنظيف الأماكن القذرة ولهذا السبب أصبحوا يعاملون معاملة المنبوذين الذين يشتغلون بمهن غير نظيفة.

وحتى فى هذه الطبقات الأربع أصبح المجتمع ينقسم على أساس المهن المختلفة. وأصحاب هذه المهن القائمين بالأعمال الانتاجية العديدة التى تلبى حاجات المجتمع انتشروا فى ألوف الأرياف طول إمتداد الأرض. وفى تلك الأيام أى قبل ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ سنة لم يكن هناك تحرك إجتماعى أو معاهد التدريب المهنى أو المدارس أو الكليات و كانت

http://nidaulhind.blogspot.in

الطريقة الوحيدة لنقل المعرفة هى من الأب إلى الإبن أو من المعلم إلى التلاميذ الذين كانوا يسكنون معا لسنوات عديدة. وحتى أن معرفة الأدب و الكتب المقدسة كانت تحفظ عن ظهر القلب بطريقة السماع والحفظ. وكانت تنقل من جيل إلى جيل أخر و من معلّم إلى تلميذ.

وقد تطور النظام الطبقى تدريجيا نتيجة النقل المتواصل للمعرفة الأدبية والمهنية. وقد أصبحت الطبقات الواسعة متصلبه وغير متغيرة. ولو أن هذا النظام كان يتمكن من الإستقرار وتلبية الحاجات الإجتماعية إلا أنه أدى إلى ركود المجتمع بصورة تدريجية - وبالنسبة للطبقات التى حرمت من التعليم العالى أسفر هذا النظام عن ظروف الحياة المذلة والمعاملة الأجتماعية المهنية. و أصبحت الدرجة الأعلى للقسوة والإستهتار نصيب اؤلئك الذين كانوا خارج الإطار الإجتماعى لهذه الطبقات الأربع ولذا لاقوا معاملة المنبوذين. و بدأت هذه الظاهرة القبيحة حتى قبل ٢٥٠٠ سنة خلال عهد البوذا ، وفى الواقع جاءت الديانة البوذية كثورة ضد النظام الإجتماعى والروحى الفاسد. وعلى الرغم من تواجد المصلحين مثل "البوذا" و "مهاوير" وفى الفترة التالية عديد من القديسيين مثل "تشيتنا" و"كبير" و "بورنداراسا" و "باسا" و "يسورا" و "تيروفالوفار" و "غينانيسور" و "نامديف" و "نانك ديف" و الآخرون فى طول البلاد و عرضها إلا أن الركود و التدهور الإجتماعى ظل مستمراً و أدى إلى تقسيم شريحة كبيرة من المجتمع فى الطبقات المهنية المعتمدة على الولادة بدون أن يوجد هناك أى مجال للتخلص من هذا التقسيم الطبقى الضيق ، و ذلك لحد أن الولادة والحياة وحتى الحياة بعد الموت أصبحت خاضعة للطقوس والعادات المبنية على التقسيم الطبقى.

ولذا عندما يقول الناس إنه يوجد هناك مجتمع متجانس يسمى بـ "هندو" فيبدو ذلك تعبيرا خاطئا لأنه لايوجد أى شخص هندوسى بدون انتمائه إلى طبقة المعتمدة على الولادة. ولو كان من الممكن فى الأزمنة السحيقة بالنسبة للغرباء أن يندمجوا فى "سانا تانا دهرما" كما حدث فى الواقع بالنسبة لمجموعة شاكا وهنس و غيرهما فإن التصلب الذى ظهر فى الفترة الأخيرة للركود يجعل من المستحيل لأى شخص أن يتحول إلى عقيدة "ساناتانا" أو ما يسمى بـ الهندوسية لأنه

http://nidaulhind.blogspot.in

من الضرورى له أن يكون مولودا فى طبقة خاصة ليكون عضوا لهذه الوحدة الدينية. وهذا متناقض مع المفهوم الأساسى كما أوضح المصلح الأكبر "ادى شنكر تشريا" الذى جمع الطبقات و العقائد المختلفة المثيرة للجدل مرة أخرى فى إطار "ساناتانا" إذ قال بصراحة بأن كل شخص هو "شودر" بحكم الولادة ، و أن التعليم و التربية هى التى تجلبه الحياة الثانية أى تجعله مولودا من جديد.

وقد أوضح مزيدا بأنه لاينتمى أى شخص إلى طبقة خاصة بحكم الولادة ، و كل هذا التقسيم مبنى على الميزات و الأعمال فقط.

بيد أنه على الرغم من هذه البيانات الصريحة كلها جعل الاتباع مجتمعا مبنيا على التصلب والركود و فقدوا صلاحيتهم لإستيعاب الأشخاص المؤمنين بالعقائد الأخرى وليس عندى أدنى شك وقلت مرارا بأنه لو ظهرت المسيحية أو الاسلام فى عهد "أدى شنكر" أو قبله لكان قد استوعب المسيحية والاسلام كما استوعب البوذية فى اعماق بحر "ساناتانا دهرما" الذى يعتمد على الوحدانية.

وبما أن المجتمع الهندى لم يصبح متصلبا فقط و إنما أصبح غير قادر على استيعاب المجارى المختلفة للأفكار و العقائد ، فإن الاسلام الذى وصل الهند بمفهومه الواسع داعيا ليس لوحدة الله فقط و إنما لمساواة كافة البشرية وجد قبولا واسع النطاق لدى الطبقات الضعيفة والسافلة من المجتمع الهندى بوجه خاص. وإنه جدير بالذكر أن الذين جاءوا من الخارج كانوا بضعة ألوف فقط ولكن التعداد السكانى للمسلمين فى الهند اليوم يتجاوز ١٢٠مليون نسمة ، وأنـــه من الحقيقـــة المعروفـــة أن أكثر من ٩٥/ من المسلمين هم الذين تحولوا مـــن "ساناتانا دهرما" أو ما يسمى بالهندوسية بوجه عام.

ويعود تاريخ التحول إلى الاسلام إلى ما يتراوح بين ٤٠٠ سنـــة و ٥٠٠ سنة تقريبا و لا يمكن لأحد القول أنه بسبب هذا التحول يمكن لهذا التعداد السكانى الكبير أن يتنازل عن التراث الذى امتد على ٥٠٠٠ سنة و أن يفقـــد الترابط مع الروح الثقافيـــة للعصور الماضيـــة. و فى الحقيقـــة لانجد حتى فى يومنا هـــذا أى خلاف عرقـــى أو لسانـــى أو ثقافى بين المسلمين و غير المسلمين فى مناطقهم المختصة فى هذا البلاد. على سبيل المثال أن المسلمين فى ولايات تاميل نـــادو و بنغـــال

http://nidaulhind.blogspot.in

و كيرالا و مهاراشترا وغجرات ينطقون نفس اللغة المحلية الخاصة ويلبسون لباسا مماثلا ويمارسون بعادات مماثلة للأكل و لهم ثقافة مشتركة مثل الموسيقى و الرقص و ما إليها. و معظمهم فى الهند لايستطيعون تلاوة القرآن الكريم باللغة العربية و حتى أغلبيتهم غير قادرة على قراءة و كتابة اللغة الأردية التى أصبحت لغة شمال الهند خلال حكم المسلمين. فبإستثناء الاختلاف فى طرق العبادة لا يوجد هناك ما يميز بين أتباع هاتين القيدتين بصفة ملموسة.

أما العلمانية فهى كالمصطلح السياسى الغربى جاءت مع المفاهيم السياسية المعروفة الأخرى مثل الديمقراطية و القومية والرأسمالية و الإشتراكية التى هى جزء لا يتجزأ لعلم السياسة الحديثة. و لا جدوى فى محاولة تحديد هذه المفاهيم فى سياق المجتمع الهندى من الناحية التاريخية. على سبيل المثال لم تكن الهند أمة واحدة أبدأ بمفهوم المصطلح الحديث لعلم السياسة. وقد تغير مفهوم الأمة تغيرا جذريا من مفهوم الأنجيل الأصلى للمجتمعات الصغيرة إلى مفهوم دولة قومية حديثة حتى فى البلدان الغربية أيضاً. و حتى فى يومنا هذا ، لو أن الدولة التى تعرف بأنها شعب منظم لقانون داخل أقليم خاص هى كيان ذو هوية مميزة ، لا يوجد تعريف محكم لكلمة (NATION) سوى أنه شعب يشعر بكونه مستقلا. و من هذه الناحية نجد أن المجموعات البشرية المختلفة الناطقة بلغات مختلفة من أصول عرقية مختلفة تجمعت وشكلت من أجل السهولة السياسية دولة فيدرالية مثل الولايات المتحدة الأمريكية و زعمت بكونها أمة واحدة فى سياق العالم. و يمكن إدراك مدى سطحية هذه الفكرة عندما نشهد أن دولة فيدرالية مماثلة و هى الإتحاد السوفيتى إنهارت وسقطت فجاءة و انقسمت إلى عدة دول ذات قوميات مختلفة. و الهند التى هى شبه قارة من الناحية الجغرافية قد تطورت فيها عدة وشائج للربط والتوحيد من الناحية التاريخية لأنها قبلت فكرة التنوع فى الإطار الكبير للوحدة الثقافية والروحية و لكهنا لم تصبح وحدة واحدة سياسية كدولة واحدة أبدا ناهيك عن أمة (NATION) واحدة .

وهنا ينبغى أن نشير إلى اسطورة معروفة قائلة بأن الحكام والشعب فى الهند لم يعتقدوا فى الإعتداء و الإنتصارات خارج حدودها.

http://nidaulhind.blogspot.in

ولم يكن ذلك بسبب إعتبارا ت اخلاقية أو فلسفية لأن هولاء الحكام كانوا فى معظم الاحيان يقاتلون بعضهم مع بعض داخل حدود شبه القارة. وفى الواقع لايصح القول بأن الملوك لم يعبورا الحدود بهدف توسعة قوتهم أو مملكتهم ، فكثير مـن الملوك والسلالات مثـل "تشولا" و تشولوكيا" وغيرهما عبرت البحور لتوسعة قوتهم فى بلدان جنوب شرق آسيا إلى اندونيسيا. و كانت الديانة البوذية هى الديانة الوحيدة التى خرجت من الهند مع نساكهـــا فى مهمـــة لنشـــر الحب واللاعنف و السلام و حولت الجزء الأحسن من العالم المعروف آنذاك إلى هذه الفلسفة. وأما فيما يتعلق بشبه الجزيرة الهندية الشمالية فجعلت جبال هملايا المكسوة بالثلوج مستحيلا لجيوشنا أن تعبر الحدود الشمالية إذ أن الطريق الوحيـد كان ممر خيبـر عن طريـق هندوكش. وإن معظم الغزاة جاءوا فى الفترة من عهد سكندر إلى عهد العديد من أتباع الاسلام ، و كلهم استغلوا القتال الدائـــر بين ملوك الهنـــد الذين لم يقاوموهم متحدين فى أى مرحلة من المراحل. وعلى عكس ذلك فإن التاريخ حافل بالشواهد الدالة على أن هولاء الملوك دعوا و رحبو بالغزاة الأجانب لقمع خصومهم داخل البلاد. وحدث هذا عندما قام "امبى"مساعدة سكندر لهزم "بورس" وقام جاى تشاند مساعدة محمد غورى لهزم برتهوى راج و هدم عرشه.

واستمر هذا التقليد لما جاء البريطانيون أولا فى زَى " شركة 'لهندية الشرقية" لغرض التجارة وعندما وجدوا هنا جوا للقتال والحروب بين الملوك اكتسبوا ما اكتسبوا من الطاقة السياسية و بعد أكثر من مائة سنة لجهود متواصلة و استخدام حاكم محلى ضد حاكم آخر انتصر بضعة انكليز على شبه القارة هذه و بنفس الطريقة للتفريق و الإيقاع خاصة فى المجال الطائفى بين المجتمعين رئيسين نجحوا فى مواصلة حكمهم لشبه القارة لفترة أكثر من ١٥٠ سنة. وهذه النقيصة التاريخية المتمثلة فى الكفاح المميت وخاصة للقوة السياسية هى التى قضت على الطموحات الهندية للإنسجام والوحدة.

وللمرة الأولى خلال كفاح الاستقلال من قبل القوى السياسية المختلفة فى الهند و التى لم تتجسد فى الحكام الأوائل و إنما فى الجمهور والمفكرين شهدنا نمو بذور القومية الحديثة. و حيث أن الهدف كان

http://nidaulhind.blogspot.in

الحصول على الاستقلال فضل الناس صرف النظر عن الخلافات الدينية و اللغوية والثقافية و وقفوا صفا واحدا تحت لواء مشترك لحزب المؤتمر للكفاح لأجل الاستقلال. و كانوا سعداء الحظ بحيث كان بينهم زعماء مثل بال غنغا دهرتلك و مهاتماغاندى ادركوا أهمية تحويل الحركة إلى جماهير الشعب. وأضاف مهاتما غاندى عاملا هاما إلى ذلك الكفاح و هو جعل الجماهير الفقيرة الأعزل تقف صامدة مع الثقة والقوة على أساس اللاعنف و العصيان المدنى.

وكما ذكر أنفا عندما أدركت القيادة المسلمة بأنه لا يمكن لها فى الهند الديمقراطية الحصول على نصيب مناسب فى الحكم فبادرت لإثارة نظرية القوميتين المبنية على الديانة بتاييد المستعمرين ونهائيا نجحت فى إنشاء دولة مستقلة تسمى بباكستان. و تبين مدى سطحية نظرية القوميتين المعتمد على الديانة فى فترة قصيرة لما إنفصل النجاح الشرقى الكامل لباكستان و أصبحت قومية مستقلة تسمى الآن ببنغلة ديش عام ١٩٧١، و لو أنها تتبع نفس الديانة كانت الفوارق اللغوية والثقافية والعرقية عاملا مهما وراء هذا الانفصال و هكذا فإن فكرة "ديانة واحدة - قومية واحدة" بالجملة ليست إلا مبدأ خاطئا للنظرية السياسية.

غير أننا فى الهند مازلنا متشبثين بنظرية القوميتين منذ بداية الاستقلال ، وبعد تقسيم البلاد على الأقل كان يتوقع بأن المسلمين فى الهند سيجدون أنفسهم فى ظروف مواتية للتخلص من هذه الفكرة وسيصبحون جزءا لايتجزأ للتيار الرئيسى للهند الديمقراطية. ولكنهم خلال هذه الفترة ظلوا يعتبرون كيانا منفصلا ذا هوية مستقلة على أساس ديانتهم.

و إبّان وضع الدستوركان المؤسسون متأثرين بالدرجة الرئيسية بالفلسفة العلمانية لدساتير البلدان الديمقراطية مثل المملكة المتحدة وفرنسا والولايات المتحدة. فتصوروا البلاد حتى فى تمهيد الدستور كجمهورية ديمقراطية ذات سيادة تضمن لجيع المواطنين الحصول على الحقوق الآتية :

العدل : الاجتماعى و الاقتصادى و السياسى.

الحرية : للفكر و التعبير والاعتقاد و الثقة والعبادة.

http://nidaulhind.blogspot.in

المساواة : للمكانة والفرص.

الاخاء : الذى يضمن الكرامة للفرد والوحدة و الانسجام للشعب.

ولأجل توفير المساواة لكافة المواطنين ضمن الدستور فى الفقرة ١٤(فى الجزء الثالث الذى يعالج الحقوق الأساسية) المساواة أمام القانون قائلا: لا تنكر الدولة لأى واحد المساواة أمام القانون أو الوقاية المتساوية عن طريق القوانين داخل اقليم الهند". وحتى أن الفقرة ١٥: هى أكثر أهمية حيث تحرم التمييز على أساس الديانـــة و العـــرق أو الطبقة أو الجنس أومكان الولادة كمايلى :

١٥: تحريم التمييز علـــى أساس الديانـــة أو العـرق أو الطبقـة أو مكان الولادة.

(١) لا تميز الدولة ضد أى مواطن على أساس الديانة والعرق والطبقة والجنس و مكان الولادة فقط أو أى واحد من هذه الأمور.

(٢) لايتعرض أى مواطن على أساس الديانة والعرق و الطبقة والجنس و مكان الولادة أو أى واحد من هذه الأمور لأى عجز أو مسئولية أو قيد أو شرط فيمايتعلق بـ

(ا) الدخـول إلى المحلات التجاريـــة والمطاعم العـامة و الفنادق و أماكن التسلية العامة أو ،

(ب) استخدام الآبار والحياض وأماكن الاستحمام والشوارع والمنتجعات العامة التى تتم صيانتها كليا أو جزئيا من الاعتمادات المالية للدولة أو التى تم انشاؤها لاستخدام عامة الناس.

(٣) لا تمنع هذه الفقرة الدولة من اتخاذ ترتيبات خاصة للمرأة والطفل.

(٤) لا تمنع هذه الفقرة أو المادة (٢) للفقرة ٢٩ الدولة من اتخاذ الترتيبات الخاصـــة لتنمية الطبقات المتخلفة اجتماعيـا و تعليميـا أو المنبوذين و القبائل المتخلفة.

و كذلك تضمن الفقرة ١٦ التساوى فى فرص التوظيف العام بدون أى تمييز على أساس الديانة و العرق و الطبقة و الجنس و الخلاف و مكان الولادة و السكن أو أى واحد من هذه الأمور.

غير أنه بسبب التشبث الدووعى بنظرية القوميتين أدخل الدستور مفهوم الأقلية الدينية فى الفقرة ٣٠ التى تنص على حقوق

http://nidaulhind.blogspot.in

الأقليات لإقامة و إدارة المعاهد التعليمية لها.

و فـــى دولـــة ديمقراطيـــة و دستور ديمقراطـــى فإن "الأقليـة" أو "الأغلبية" عامل متغير، فمن الناحية السياسية وعلى أساس الانتخابات و الأصوات المحصلـة يمكن أن تتحـول الأغلبيـة إلى الأقليـة و بالعكس. و لذا فان فكرة الأقلية الدائمة قد تكون متناقضة و نفيا لمفهوم المساواة. وعلى الرغم مماورد فى الفقرة ١٤ و ١٥ بخصوص ضمان المساواة و عدم ممارسة أى تمييزعلى أساس الديانة إلاّ أن بذور التمييز زرعت فى بداية الدستور عن طريق الفقرة ٣٠، التى تعتبر المجتمع الذى يتبع ديانة الاسلام كيانا منفصلا ذا حقوق مستقلة رغم عدد لابأس به لعناصره. و هكذا أصبحوا المواطنين من الدرجة الثانية فى مقدمة دستورنا.

و منذ ذلك الحين مازالت جميع الأحزاب السياسية بما فيها حزب المؤتمر تعتبر هذا المجتمع الكبير بنكا للأصوات الذى يمكن إغراؤه باعطاء تنازلات خاصة على أساس الديانة. إنه معروف جدا أن أغلبية المسلمين فى الهند لاتفهم اللغة الأردية و لا تقدر على القراءة و الكتابة بهذه اللغة. و إنها تطـورت كلغة مركبة لعامـة الناس فى شمال الهنـد و ما كانت لغة البلاط الملكى المغولى. وتعنى كلمة "أُردو" لغة الشعب فى المخيمـات العسكـرية. و كانت تسمـى فـى البدايـة بـ"هنـدى" أو "هندوى" كما انشاءها المؤسسون الكبار مثل امير خسرو الذى استخدم كلمات عامة من اللغات السنسكريتية و العربية و الفارسية لتكوين لغة للشعب وأصبحت هذه اللغة لغة مشتركة فى المنطقة الشمالية. و كانت تكتب فى الخط العربى و "ديفناغرى" (الهندى) معا ولذا أنه من الخطأ أن تعتبر لغة مجتمع دينى أى المسلمين. وقد شهدنا أن طبقة كبيرة حتى فى باكستان و الأغلبية فى بنغلة ديش لا تفهـم و لاتنطق اللغة العربية. و لو أن باكستان جعلها لغة رسيمة ، أن الناس فى المناطق المختلفة فى ذلك البلد مثل سنده وبلوتشتان و بُختونستان و بنجاب ينطقون بلغاتهم الخاصة. و قد يبدو غريبا أن اللغة الأردية التى تكتب فى الخط العربى و ديفناغرى (الهندى) ينطق بها و يفهمها الناس فى الهند "كهندوستانى" أكثر منهم فى باكستان. و لكننا فى

http://nidaulhind.blogspot.in

الهند لمجرد أغراض سياسية فكرنا فى أننا باعتبار هذه اللغة لغة المجموعة المسلمة سوف نسترضى المسلمين و نكسب تاييدهم بشكل أصواتهم فى الانتخابات.

غير أن هذه اللعب لم تساعد هذه المجموعة الكبيرة فى الاندماج فى التيار الرئيسى لجنسية مشتركة للهند الديمقراطية. و فى الواقع، أن المصالح المغرضة فى المجموعة المسلمة والتى تعتمد على الأصولية والتعصب و تنتهز الأمية و التخلف لدى الشرائح الكبيرة للمسلمين ، و عناصر الأحزاب السياسية المختلفة التى تعتبر المسلمين بنكا للأصوات استغلت الأحكام الدستورية لاعتبار المسلمين أقلية دائمـــة أو مواطنين من الدرجة الثانية لكى يمكن استخدامهم للمكاسب السياسية.

ولو أن نظرية القوميتين قد ثبتت ركاكته أكثر من مرة مازالت باكستان تعتمد عليها لإحتلال وادى كشمير على أساس تواجد أغلبية مسلمة فيه وإنه جدير بالذكر أنه لو نأخذ بالحسبان كافة ولاية جامـو و كشمير فلا يوجد المسلمون فى الأغلبية لا فى جامو و لا فى لداخ باعتبارهما منطقتين هامتين فى الولايـــة يعارض سكانهما باكستـــان. و إنه معروف الآن بأنه رغم أغلبية سكان وادى كشمير من أتباع الاسلام أنهم لا يريدون الإنضمام إلى باكستان و كل ما يريدونه ليس إلا دولة مستقلـة لأنهم يريدون أن يعتبروا أنفسهم أمة مستقلـة. و لو أن باكستان ظلت تؤيد و تمول حركة المقاومة بالجملة فى كشمير وتدرب الارهابيين و ترسل المرتزقة من افغانستان و المناطق الأخرى لأجل التسلسل فى وادى كشمير انها قد ادركت الآن أن جهودها لم تتكلل بالنجاح فى اقناع أغلبية الناس فى وادى كشمير للإنضمام إلى باكستان.

و الآن يوجد شعور بخيبة الأمل لدى قيادة باكستان حيث تشعر بأن جهودها فى كشميرقد باءت بالفشل. غير أن هناك قوى دولية معينة تشجع الحركة الإنفصالية فى وادى كشمير حيث تأمل بأنه إذا أصبحت كشمير دولة مستقلة فيمكن أن تنال موطىء قدم فى شبه

http://nidaulhind.blogspot.in

القارة هذه فى موقع استراتيجى للغاية على حدود الصين و باكستان و الهند.

ولكن الجانب الأسوأ للطائفية فى الهند يتمثل فى تهديد الانقسام الطبقى و كما ذكر آنفا فإن التمييز الطبقى القائم على العوامل التاريخية و الطبيعة المهنية أصبح ظاهرة دائمة للمجتمع الهندى بسبب ظروفه الاقتصادية و الاجتماعية. وقد أصبح نظام الانقسام الذى نشأ و تطور عبر ألوف السنوات متصلبا و مبنيا على الولادة مما أسفر عن الظلم الاجتماعى الخطر لعدد كبير من الاشخاص الذين يعاملون معاملة سيئة باعتبارهم أدنى منزلة اجتماعية. و كان أكبر حرمان و أشد قسوة نصيب للأشخاص الذين أصبحوا منبوذين دون أى خطأ منهم و إنما على أساس ولادتهم و المهن الموروثة.

وهذه الظاهرة أصبحت أسوأ لعنة و اثم للمجتمع الهندى كما وصفها غاندى ولذا فانه باشر حركة رئيسية حتى خلال كفاح الاستقلال للقضاء على بلاء اللامساسية. و قد أصبحت بعض الكلمات المعتمدة على الانقسام الطبقى والتى كانت تستخدم لوصف هذه المجتمعات وصمة عار على جبين البلاد ولذا أكد على ضروة إلغاء تلك المصطلحات وتسمية عناصرها بـ"هرى جان" (أطفال الله) ففى الدستور الهندى لم يتم الغاء اللامساسية فحسب ولكن ممارستها بأى شكل قد أصبح جريمة مضادة للقانون. وبذلت جهود مخلصة حتى فى إطار الأيدولوجية السياسية ليس لمجرد الديمقراطية وانما للاشتراكية والشيوعية لإقامة مجتمع خال من الإنقسام و التمييز الطبقى فى الهند. و من هذا المنطلق فإن الدستور فى صيغته الأصلية كان ينص على منع أى تمييز بين المواطنين على أساس الديانة والطبقة. ولكن إبان التعديل الدستورى الأول لعام ١٩٥١م تقرر نتيجة ضغوط شديدة على أساس اعتبارات سياسية إدخال فقرة فى البند رقم ١٥(٤) تنص على تنازلات للمواطنين الذين ينتمون إلى الطبقات والقبائل المدرجة فى الجدول وهذا المصطلح تسمية لمن يعتبرون منبوذين و تنص ايضا على تنمية الطبقات المختلفة اجتماعيا وتعليميا. وهذا المصطلح يفهم الآن فى سياق مايسمى بلجنة مندال "بما يشير إلى الطبقات الخاصة التى تسمى

http://nidaulhind.blogspot.in

بالطبقات المختلفة الأخرى. والنتيجة النهائية هى أن جزءا كبيرا من المجتمع الهندى سيعرف بهويته الطبقية مرة أخرى مع كونه عارا تقليديا وذلك تحت ستار سياسة لمنحهم امتيازات خاصة فى الوظائف الحكومية. بالنسبة لتقديم المساعدة للطبقات المحرومة بشكل امتيازات خاصة على أساس التخلف التعليمى و الإقتصادى فهو أمر مفهوم يقبله العقل ولكن استخدام التخلف الإجتماعى التقليدى الذى كان وصمة عار دينية هو فى الحقيقة إرجاع عقرب الساعة باعادة تلك الطبقات إلى حالة التخلف الدائمة.

و من بواعث الإرتياح أنه لا توجد فى الهنـــد اليوم منطقـــة على حدة للمجموعات المعتمدة على الطبقة أو الديانة على أساس أغلبيتهم فى تلك المنطقة. و لو كان الأمر هكذا كما حدث عند إنشاء باكستان لشهدنا أن الهند قسمت إلى مئات الولايات الصغيرة المبنية على الطبقة و كذلك إنشاء باكستان جديدة.

و من حسن الحظ، فإن حـــزب المؤتمـــر كحركة سياسية قبل الاستقلال و كحركة و حزب للبناء القومى بعد الاستقلال قد اعتمد بوجه خاص على النمو الاقتصادى مع العدالة الاجتماعية باعتباره عنصرا مهما لنشاطاته السياسية منذ الاستقلال. و بفضل هذه الثقة ظلت الهند دولة ديمقراطية بل دولة علمانية أيضا بمفهوم اوسع لهذا المصطلح طيلة ٥٠ سنة الماضية. وترى تهديداً ناميا لشعور الوحدة والانسجام من العناصر التى ترغب فى تقسيم المجتمع الهندى إما على أساس الديانة أو الطائفية أو الانقسام الطبقى و إذا كان من المطلوب أن تبقى أمة واحدة بجميع تنوعاتها الإقليمية و اللغويـــة و الثقافيـــة و الدينية. فلا يمكن لأى حزب سياى التأكيد على ديانة خاصة أو طبقة خاصة دون أخرى. و لا يمكن لأى حزب كهذا أن يصبح حزبا قوميا و لذا نأمل بأن القيادة السياسية فى البلاد ستدرك صرورة التنحى عـــن هذه النزعـات الانقساميـــة و المثيـرة للشقـــاق و لتوحيد كل مواطنين الهند باعتبارهم المواطنين المتساوين بالمعنى الحقيقى للكلمة دون تقسيمهم فى الطبقات المختلفة على أساس العوامل الدائمة التى لارجعة لها مثل الديانة و الطبقة التى تم تحديدها فى الفقرة ١٥ من الدستور.

http://nidaulhind.blogspot.in

و لابد لنا أن نركز على مشاريع التنمية الأقتصادية المتوازنة مع العدالة الإجتماعية ، وتوجد قرائن لهذا التركيز فى سياسات الحكومة الحالية التى قد باشرت بمشروع رئيسى خاص لإلغاء تمركزية السلطة حتى مستوى المجالس الشعبية القروية و اعطاء صلاحيات أكبر للطبقات الضعيفة و المرأة. و من المأمول بأنه إذا تم تنفيد اللاتمركزية الاقتصادية و النمو الاقتصادى السريع جنبا لجنب ذلك فإن الهند الجديدة المعتمدة على مبادىء المساواة و الوحدة و التى تنشأ كقوة اقتصادية كبيرة بفضل النمو المتوازن ستحتل مكانة مهمة بين مجموعة الدول التى تتقدم نحو "العالم الواحد" فى القرن الحادى والعشرين.

تعريب : د/فرحانة صديقى